كيف بفجري وقد ثقل على كتفي نعشك؟

الى اخي قاسم بعد عام على اغتياله

علي عبد الأمير

١

لم تمهلني ، فتركت على
بابي غيمة ارملة
اسلمتني الى مدينة
مقفلة
بابها الغربي من صحراء
مسلحين
وجنوبها البسيط من
بساتين اوباش وفسائل
كراهية
لم أوافك بحلمي الأخضر
ولا يداك اخذتني الى شرف
بيتنا
خشية منك على طراوة في
قلبي
وحذرا من اعياء
ورفقا بسماء مبددة في
شرف البلاد
لم تمهلني ، فتركتني
الى قلق
كأنه الندى الإنثوي في
رمضاء الفحولة
مالمنفى ان لم يكن يتمي
بعدك
اين اذن فرحك بكلامي
"المنفى : مكان لم اعد
بحاجة اليه"

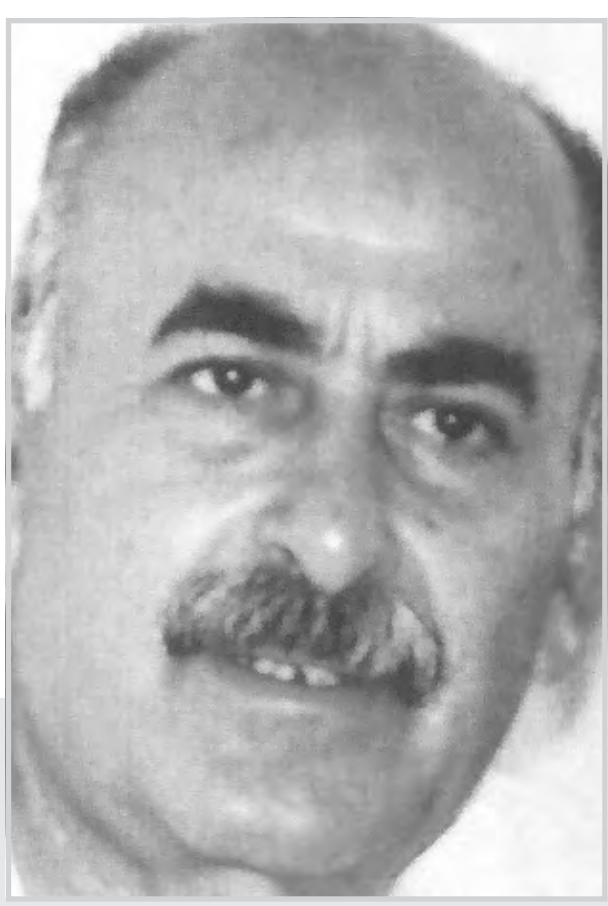

٢

في رثاء الجمال ...في مديح الأمل

في العام ١٩٦١ كنت في سنتي الدراسية الاولى حين جاءت الشرطة و" داست" بيتنا في المسيب الغافية على الفرات ، واقتاد رجال بمسدسات الى سيارة الشرطة الخضراء اخي الذي كان يقضي عصر ذلك اليوم الصيفي قربِ مكتبته .لم يكن الحدث سهلا عليَ لجهة ما اشقاني منظر امي وهي تشهق بالدعاء لحرية قاسمٍ عند كل صلاة ثم تجهش ببكاء مرٍ فامضي اليها سريعا واجلس على طرف سجادتها مستنشقا رائحة " ماء الورد" في أزارها الذي كنت اقارنه بين ما تعلمته في "القراءة الخلدونية" حيث " أزار امي ازرق "، ولكن ازار العلوية خديجة محمد حسن كان ابيض ، وكنت اتمنى لو تطابق اللون بين ما تعلمته في الدرس الأول ومشهد امي وهي تصلي.

الحدث علمني مبكرا ايضا، معنى الجدية ومعنى المعرفة ومعنى التحدي، فاثيرت حالة طوارىء في البيت لا من اجل اطلاق قاسم من سجنه ، بل من اجل ايصال كتب السنة النهائية (البكالوريا) اليه في السجن ، فالامتحانات على الابواب ، وقاسم قرر تحدي سجنه في الاستعداد للامتحان المصيري الذي يرسم المستقبل (الدراسة الجامعية) ، وامي استلمت الرسالة ووقفت الى جانب قاسم بقوة في خياره ، وجابت من اجل ايصال الكتب الى داخل السجن ، طرقا مغلقة تارة وسهلة تارة اخرى ما بين المدرسة ودائرة التربية ، والقاضي الذي كان يسكن في واحد من بيوت حكومية عدة مطلة على شاطىء الفرات .ولأن النفوس لم تكن مغمورة تماما بالفساد والنذالة في تلك الايام ، فقد وافق القاضي على حق قاسم باداء الإمتحان النهائي واصدر حكما الزم الشرطة بتنفيذه ، وعلى ضوء ذلك حملت الكتب مع امي وذهبنا الى السجن فقابلنا قاسم بفرح لم اجد مثله وقد شع في عينيه ، وفي باحة السجن احتضن امي ثم رفعني وانا ابكي مع الكتب التي كنت اضغط عليها كي لاتسقط وكأنني كنت احمل سر خروجه الى الحرية.

بدأ قاسم يؤدي امتحاناته ، وفي ضحى يوم صيفي كنت الهو في باحة بيتنا مع صقر صغيرحمله الفلاحون من زبائن كانوا يفضلون شراء البضاعة من محل بقالة والدي ، حملوه هدية لي لكنني تركت الطائر ما ان دفع شرطي الباب وهو يصطحب قاسم المقيد اليدين الى داخل البيت .كان الشرطي رافق قاسم الى المدرسة لإداء امتحانه ، ويبدو انه رق لحال الشاب فاستجاب الى طلبه بزيارة قصيرة الى البيت ، ولكن فرحتي بعودة اخي انتهت اذ سرعان ما اخذه الشرطي ثانية الى السجن ،مثلما انتهت فرحتي بالصقر الصغير فنسيت الخيط الواصل بين اصابعي وقدمه ، فطار الصقر وعاد قاسم الى السجن فمضيت الى حضن امي ابكي الإثنين.

في السجن نجح قاسم في البكالوريا ، صحيح انه لم يحقق نتيجة كاملة وهو الذي اعتاد ذلك في الايام الطبيعية ، لكنه لم يكره " معدله المتوسط" الذي اوصله الى كلية الزراعة ، وفي جدية لافتة اعتبر وجوده في ذلك المحيط العلمي تحديا جديدا فاكمله بتفوق برغم مشوار سجن جديد رافقه في دراسته ، وجاء بعد انقلاب البعث الدموي في ١٩٦٣، وحينها عشت قصة اخرى مع سجن قاسم ، حين جبت متعلقا باذيال عباءة امي طرقا وممرات بين امن بغداد ومديرية الأمن العامة وسجن الحلة وصولا الى بيت الحاكم العسكري العام رشيد مصلح التكريتي ، الذي انتظرت والدتي خروجه من البيت لترمي نفسها امامه متوسلة له اصدار امر اطلاق قاسم بكفالة حتى موعد مثوله امام المحكمة متهما بنشاطه كشيوعي.

وفي حين مثل هذا الأمر الذي وافق عليه التكريتي ،ما يشبه المعجزة، كنت انا من افسد على امي فرحتها برؤية قاسم حرا وعائدا الى دراسته الجامعية ، فقد وضعت موافقة الحاكم العسكري بين يدي كي احفظها جيدا ونحن في السيارة ما بين بغداد والحلة، لكنني ولسوء حظي سهوت قليلا ، فضاعت ورقة الموافقة على اطلاق قاسم من سجنه ، ضاعت في مكان ما بين الأمكنة الكثيرة التي تنقلنا بينها ، ولتبدأ والدتي من جديد بالرحلة الطويلة ذاتها بلا كلل او ملل ، باحثة عن الامل وان كان ضيقا وبين اقبية سجون "البعث" وسلطة " الحرس القومي" الدموية.

٣

هنا ارثي الجمال في سيرة انسان انيس وحالم وعادل وموضوعي ، تعلمت منه رقة الموسيقى من دون ان يتحول الى ملقن ، مثلما تعلمت منه جدوى الفكرة الإنسانية حين تتحول موقفا حياتيا، وتستحق حين تكون عادلة ان يجند لها الفرد كل ما فيه من دأب واخلاص . تعلمت منه التسامح في بيئة سياسية وثقافية واجتماعية عراقية قائمة على الكراهية والإقصاء ، وعرفت منه شهد الصدق موقفا حيال سموم الزيف والتضليل والخداع ، جبلت معه على حب الأدب الرفيع منذ ان اهداني " ثلاثية نجيب محفوظ" تقديرا لنجاحي بتفوق وانا انهي دراستي المتوسطة ، مثلما عرفت معه كيف يتحول البيت الشخصي الى فسحة محبة مفتوحة على خطوات الناس ، ثم كيف تتحول روح البلاد دمعا صادقا واملا حتى ان ضاق بين خنادق الموت في الحرب ، او مع المعاني السود للطغيان ، وهنا للراحل الجميل اكثر من حكاية وموقف ، فهو الذي راوغ القسوة من دون ان تتمكن ثقافة الإنحطاط من جوهر فكرته ، برغم ان عملي كاتبا وصحافيا معارضا لسنوات في خارج البلاد جعله تحت دائرة ضغوط السلطة الغاشمة . في سنوات منفاي كانت رسائله، نصوصه، متوهجة بالعذوبة وبالعذاب ، تشع وجدانا مجبولا على الأمل ، كان يمدني باشارات لاتنتهي –وان كانت رموزا –من ان امضي في خياري الى آخر الشوط حتى ان كان مثار متاعب لا تنتهي بالنسبة اليه . كان يشدني الى فجيعة شخصية ، حين يقول لي انه شعر باليتم الحقيقي حين اصبحت المسافات بيننا بعيدة ، مثلما كان يلعب بمهارة على اشواقي حين يصف زياراته الى كربلاء او النجف كلما شعر بان خطرا جديا بدأ يحيط بي ، وكيف كان يحيي ذكرى وفاة امي وابي بشموع وابتهالات مضاعفة سببها غيابي الذي كان بدأ ليس من خروجي الى المنفى ، بل منذ ان اخذتني الحرب من بيته الرحيب الى مواسمها المرعبة ، وكيف قطع مئات الكيلومترات مرعوبا يبحث عني بين الجثث والاشلاء الممزقة يوم انكسر ظهر البلاد في حرب الخليج الثانية ، وكيف ضمني اليه وانا حطام انسان ، وكيف ضمني مودعا اياي قبل سفري الى خارج البلاد حاملا معه نصي " هذه الارض ليست لي" الذي احزنه كثيرا بل اشقاه لما وجد فيه من نبوءة ما كان يريد ان يصدقها برغم انه تحدث لي مطولا عن عميق رؤاها، وكيف ضمني باكيا كطفل حين عدت الى البلاد ليهدأ قليلا من مخاوفه علي ثم عاد اليها مع اول اطلالة لوحش العنف البعثسلفي ، وهو يراني ناشطا في الاعلام والمؤسسة السياسية (مجلس الحكم) من دون ان يدري ان القتلة سيكونون ابرع مما تصور ، فقتلوني يوم حفروا برصاصهم جبهته المضيئة.

لم يعلمني حب الأرض لكنني ادمنت ذلك فيه حين زاوج بمهارة بين حكمة التربة حيث تخصصه العلمي وحذاقة النقد الأدبي والفني ، ولم يكن يشير الي بحاجة الأديب الى المعرفة العلمية التي تزيد اللغة والخيال خصبا لكنني عرفت ذلك من مشاريعه التي امتدت من " مايكروبايولوجيا التربة" الى دأبه العميق في تحليل النصوص الأدبية والنظر بمزيج نادر من الفكر الإجتماعي النقدي والدراية بجماليات فنية الى الاعمال السينمائية والدراما التلفزيونية.

وحول سعيه القلق الى ان يكون حاضرا في المشهد الثقافي العراقي من دون ان يعني ذلك الوقوع في احابيل السلطة ، استعيد هنا ما كتبه جاسم المطير بعد يومين على اغتيال الحبيب الأنيس "لم يكن قاسم مهمشاً في زمن الدكتاتورية كما أريد له أن يكون على وفق تخطيطات شياطين وزارة الإعلام ومشرعي سياساتها ، بل خطّ لنفسه صورةً غير قابلة للتأطير الرسمي بتحدٍ فائق النوعية لمحاولات تهميشه فكان حريصا على توكيد استقلاله العقلي في كل مقالة يكتبها حتى ظفر ، بجدارة ، بمنافع حب و متابعة قرائه مترقبين رأيا يقوله عن فلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني .

نما عنده حس النقد الفني نموا متسارعا جعل حتى قادة الصحافة الحكومية آنذاك غير قادرين على تجاهل موجات كتاباته الفنية برغم أن إحساسه كان ينبئه انه يعيش في منفى دائم وهو في مدينته ذاتها وبين أهله وأهلها . كان لا يتورع من القول في كل مرة يغادر فيها لقاءنا انه عائد إلى المنفى الذي يتبادل الحب معه فلا هو يريد الخلاص من المنفى ولا المنفى يريد ..! وليذهبوا إلى الجحيم ..! عبارته المحببة لديه كفاصلة مسرحية يرددها في كل وداع بعد لقاء قصير أو طويل بيننا" .

كان شديد الإلتصاق "بضميره وضمير قارئه وبالمساهمة في عملية التنوير. في السر ، قلبا وروحا، كان يؤمن بان إشكالية الانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية مسألة وقت تحل بالسقوط المحتم لنظام صدام حسين . مع وجوده في هذا الأيمان ما وجدته يوما متأزما ... بل كان طوال حياته متصوفا بالصبر" .

٤

تعيينه مديرا عاما لدار الشؤون الثقافية –قبل اغتياله بنحو اسبوعين- ، حمل علامات سرور لعدد كبير من مبدعي البلاد ، فكتبواعن " الخطوة الصحيحة لنقل دور المثقفين العراقيين من المحور الهامشي إلى المحور الميداني " ، وكيف " كان اختيار قاسم عبد الأمير عجام لمنصبه الثقافي أحد أهم التحديات التي تحدد طريق خلاص الثقافة العراقية من أزمة الظلام وتفاقمها حتى بعد عام من سقوط صدام حسين . هذا الرجل النشيط بصمت الذكاء القادر على أن يثبت أن بإمكان المثقف العراقي أن لا يكون محبطا حتى وهو يعيش في سجن كبير اقل ما فيه أن المثقف يعيش في زنزانة إنفرادية" .

وفي حين قرأ محبوه تعيينه "بمنصب ثقافي ليس كبيرا على استحقاقاته الكبرى" فانهم توقعوا أن يكون "قادرا على تقديم النتاج الثقافي العراقي المطبوع بحصيلة جديدة النوع برهانا على أن الثقافة العراقية لا تزول في ظل الحكم الاستبدادي بل تختبئ أو تتحايل أو تترامز لكنها بالنتيجة تستطيع أن تعبر عن نفسها تعبيرا وافيا تحت الشمس الساطعة حين تشتد سواعد الأغلبية من اجل إعادة أعمار الثقافة الحرة والديمقراطية " .

واجمعوا على ان " اغتياله كان اغتيالا لتجديد الثقافة وتخليصها من طحالب التبعية " ، اغتياله في مشهد يذكر بمشاهد سينما العنف الاسود حين تسد الطريق عليه وعلى ابنه ومعهما مهندس صديق (باسل نادر) ، و تنهال عليهم رصاصات الموت الخارجة من بنادق ملثمين لا يعرف أحد على وجه الدقة ان كانوا يعلمون اي اثم يرتكبونه في هذه العملية المروعة ..

كان اخي وثنية الضمير الحي في مثالا لعفة ونزاهة قلما عرفتهما في انسان ، وحين عدت الى البلاد لم استلم منه ولو اشارة صغيرة على انه راغب بمنصب على الرغم من استحقاقه ذلك وبجدارة اكان على المستوى العلمي الأكاديمي ام على المستوى الثقافي ، وكنت اخفيت عنه مطولا ما رتبته له كي يعود الى عمله الذي يحب وفيه ترجم محبته لطين البلاد وروحها ، اي ميدان البحث العلمي في "خصوبة التربة" ، وحين طلبت منه سيرته الذاتية الرسمية سألني بمزيج من الخجل والدهشة عن السبب ، وشعت عيناه لاحقا بالتماعة الأمل ، لكنه سرني بان وزير الثقافة مفيد الجزائري كان اكثر حسما مني واسرع واتخذ قرارا فعليا بتعيينه مديرا للشؤون الثقافية العامة فيما كنت انا بانتظار ان يرد وزير الزراعة بالإيجاب على ترشيح قاسم مديرا عاما لاحدى دوائر وزارته.

عن اغتيال قاسم بوصفه قطعة حية من قلب العراق كتب اصدقاء ومثقفون ومنهم الشاعر عبد الخالق كيطان الذي وصف الجريمة :كان الضحية واحدا من نقاد الثقافة العراقية الذين عرفوا بجديتهم ورصانتهم ، وممن عرفوا أيضاً بلا حزبيتهم او تبعيتهم لأية جهة غير ضمير الثقافة الحرة ..هكذا قضي على الناقد قاسم عبد الأمير عجام بعد أسبوع واحد فقط من صدور أمر تعيينه مديراً عاماً لدائرة الشؤون الثقافية ، تكريماً لمثقف عراقي عمل طوال ثلاثة عقود على النأي عن مؤسسات الديكتاتورية الإعلامية فكان نصه المنتج طوال تلك السنوات يمثل ضمير المثقف العراقي الذي لم تغره هبات الدم ، وهنا يبرز سؤال أولي عن علاقة تعيينه الجديد وجريمة اغتياله التي حصلت بدقة وتنظيم شديدين وكأن المقصود فيها كان قائداً بارزاً في الجيش أو السياسة ولم يكن غير مثقف عراقي نزيه آن الأوان ليأخذ دوره الحقيقي في بناء ثقافة عراقية حرة وجديدة ،

عرف ببراعته في النقد التلفزيوني و السينمائي حتى أن كتاباته في صحف و مجلات مثل " طريق الشعب " و " الثقافة الجديدة " و " الثقافة " لصلاح خالص عدت و كأنها معياراً لجودة الاعمال او ردائتها ..كما كتب عجام في نقد القصة و الرواية في محاولة جادة منه لاستكشاف صلة الأدب بالحياة متجاوزاً الانشغال بالاتجاهات الحديثة في النقد من شكلانية وبنيوية وتفكيكية وغيرها التي كانت في بدايات اقتحامها الجريء للثقافة العراقية ، وربما يعود ذلك إلى الثقافة اليسارية التي طبعت ثقافة عجام منذ بداياته ، وهو الذي كان آخر ما أصدره كتاب تحت عنوان لافت : " الضوء الكاذب في السينما الامريكية " الذي صدر في العام ٢٠٠١ عن الموسوعة الصغيرة في بغداد . على أن تركيز الراحل على نقد الفنون المرئية التلفزيونية من برامج ومسلسلات وأفلام وما إلى ذلك كان يدفعه إلى تطوير منهجه النقدي القائم على دراسة أثر الفنون الجماهيرية على مشاهديها وملاحقة آخر ما يستجد فيه ".

سيرة الرجل الذي غادر تخصصه الأكاديمي منحازاً إلى قيم الجمال التي تمنحها الفنون لا تشكل بالتأكيد سيرة من قتلوه ، الذين يجيدون حوار الدم بل "لا يخرج مشهد الرعب المتمثل باغتيال الناقد قاسم عبد الأمير عجام من سياق المسلسل التراجيدي المتأزم الذي يعيشه عراقيو الآن ، وهو مسلسل من المتوقع استمرار حلقاته ما ظلت النخب الوطنية ، السياسية وغير السياسية ، بعيدة جداً عن اجتراح الحلول اللازمة للخروج من النفق المظلم الذي يعيشه العراق ، وما انتشار قيم العنف وتمجيد الأسلحة إلا واحد من مظاهر هذا النفق الذي يبشر بعمليات تصفية متكررة (للكوادر) العراقية ما يمثل خسارة فادحة لا يمكن تعويضها .عاش قاسم عبد الأمير عجام حياته يمثل دور الرائي الشريف ، ومن أجل أن يحافظ على هذا الدور كان عليه أن يفقد يوماً أثر يوم ما تمنحه له الحياة من وجاهات زائلة أو بالأحرى مكللة بالدم ، وهو انسجم مع سيرته بشكل أخاذ عندما كان موته يمثل الحلقة الأخيرة في مسلسل حياته التراجيدي الذي كان فيه أحد الأبطال وأبرز الشهود عن فجيعة وطن ".

لم يكن ثمة من يتوقع ماحدث في صباح الإثنين السابع عشر من ايار ٢٠٠٤ : أن يقتل مثقف مثل قاسم عبد الامير عجام ، في لحظة أشبه بلحظة ولوج الكابوس ، لحظة إختلط فيها الدم بالتراب و الحلم بالحقيقة حد ان الوجوه التبست بالاقنعة و الارواح تاهت بحثاً عن نقطة الخلاص . واستهلال كهذا يقود الشاعر والكاتب محمد غازي الأخرس الى ان يضع مشهد اغتيال القلب الرحيم ضمن مشهد العنف الصاعد في بلاد السجون العلنية والسرية ، في البلاد التي هتكها مليون شرطي وجعلوها تطفوعلى مقابر جماعية ، فيكتب " لم يكن الامر مستبعداً بالمرة ، ليست مصادفة أن يقتل " أبو ربيع " أمام داره في الوقت الذي يقتل فيه رئيس مجلس الحكم عز الدين سليم في بغداد ، هذا سياسي و له مريدون وأتباع ،وذاك متقف له تلامذة و أبناء ، المسألة واحدة : قتل الاخر لاسكاته و تغييب أثره فيما البلاد تكاد تغلي بالمتغيرات التي لن يكون أخرها تسلم العراقيين السيادة بعد الثلاثين من حزيران .

ما الذي يعنيه هذا ؟ و لم تستهدف الحياة باكبر قيمها ؟ هل كان العالم ليصدق ما يحدث الان ؟ هل على المثقف العراقي الان أن يسارع لشراء مسدس و الاحتفاظ به عند الضرورة ؟ كيف استقبل عجام قتلته أمام باب داره ؟ هل تراه فوجئ بوجوههم الملثمة و بنادقهم المصوبة ؟ هل حاول المقاومة –مثلاً –ام تراه استسلم لمصيره و ابتسم قائلاً –هيا اقتلوني فقد أتعبني انتظاركم ؟

هذه الاسئلة كانت انبثقت في ذهني منذ الصباح . كانت الزميلة سوسن الجزراوي قد باغتتني و أنا أهم بشرب كوب من الماء في مدخل البناية الصغيرة التي طالما زارها " أبو ربيع " طوال العام الماضي . قالت –لقد قتلوا قاسم عجام ثم انسحبت كأنها خجلى من نقل هذه الفاجعة . كنت ما أزال منتعشاً بمقال كتبته عن قاسم عبد الامير عجام إذ كان كلف قبلها بيومين بتولي إدارة دار الشؤون الثقافية ،المقال كان محاولة لاعادة الاعتبار لمثقف انزوى عن الخراب طويلاً و هو اليوم يأخذ حقه الطبيعي ، سبب انتعاشي بالمقال هو تلك المشاعر الجياشة التي انتابت الرجل حين قرأه، هذا ما أخبرني به صديقي الشاعر علي عبد الامير ، تلميذه و ربيبه و شقيق روحه . قال أن " أبا ربيع لم يتمالك روحة النقية فدمعت عيناه وهو يقرأ العبارات " ، و إذ سمعت ذلك ، لم أتمالك ،أنا الاخر مشاعري ، فرحت أتخيل اللقاء القادم مع عجام ،قلت لنفسي في اللقاء القادم سيشكرني و سأرد عليه بما يثلج صدره ، سأقول له مثلاً إن ما كتبته لا يمثل شيئاً ذا بال في مسيرة حافلة بالشرف مثل مسيرتك.

الان ، لنا أن نتوقف عن التذكر لنتأمل ، نتساءل ، نعيد الاعتبار للحيرة ، لنا أن نتأهب للموت ، فالايدي التي اغتالت عجام عمياء لدرجة اللعنة ، إنها لا تميز بين المحارب و الشاعر ، لا تميز بين الاب و الابن ،و لا بين الاميركي و العراقي ، إنها يد عمياء ، متعصبة ، إصولية و ملوثة . علينا ألا نستهين بها و لا باللثام الذي يواريها ،علينا ألا نستهين بالبندقية التي تخرج في الظلام ، و لا بالخنجر المخبأ تحت سلة الخبز ، الدم ما زال يتدفق و الاحشاء الجميلة تسيح في إتون الارهاب . شخصياً ، فإنني لا أمتلك مسدساً من أي نوع ، سأظل مرتاباً ، هائجاً ما ظلت رائحة دماء قاسم عبد الامير عجام تسد علي رئتيّ ، لن أنساها ، إنها قوية ،تصرخ ... و معها الالاف يصرخون ".

هنري ميلر

استكشافات لحياة صاخبة

كاظم حسوني

لا شك في ان قارئ نتاج الروائي الأمريكي هنري ميلر، يتسنى له الوقوف من دون المزيد من الوقت للتعرف على سيرته الشخصية، التي تناولتها جميع كتبه ورواياته (مدار السرطان) (مدار الجدي) (عملاق ماروسي) وسواها، وكان ميلر قد ابدى اعتراضه أول مرة لكاتب سيرته وصديقه، مؤلف الكتاب (برادلي سمث) وعندما اقترح عليه بعزمه للقيام بكتابة سيرته، وحين قبل العرض اخيراً على مضض، اوضح (إنني كتبت قصة حياتي في كتبي، أكثر من أي كاتب آخر)، وذلك ما لمسناه في معظم كتبه الروائية التي اتخذت طابع السيرة الذاتية، ويقول مؤلف الكتاب (برادلي سمث) امضينا مدة ثمانية عشر شهرا، تحدثنا عن حياة هنري، الأيام الأولى كانت في (بيغ سور) و(باريس) و(نيويورك)، وكانت حواراتنا تتضمن أسئلة وأجوبة عن الكتابة والرسم والحياة والموت، ويمضي برادلي في القول، ان هنري ميلر، كان احياناً يبدي اعتراضه مجدداً على محاولتي للكتابة عنه، قائلاً: "أنه ليذهلني محاولة الوصول إلى اعداد كامل ونهائي لحياة المرء، أمر غير ممكن أبداً، سواء بواسطة الكلام أم الكتابة أم الصور أم التحليل كلها محاولات، لا تستطيع أية طريقة، أو الطرق كلها مجتمعة، ان تلم به، أي بالسر المراوغ الكامن في حياة كل شخص"، ثم يعلق، حين انزلقت السنة غدوت اعرف هنري معرفة أفضل، إذ تنامى لدي حنان واحترام عميقان له.. فجاء كتابه مشتملاً على سبعة أبواب (الكتاب، بيغ سور، الرسم، باريس، الطفولة، تاريخ زمني). ومما يجدر قوله ان هنري ميلر، احد الذين احترفوا الكتابة في زمن متأخر نسبياً، وكان قد عانى الكثير قبل ذلك من شظف العيش، حيث بقي لفترات في فقر مدقع، (إنني جربت كل شيء وأخفقت، اذن، فلأجرب الكتابة، الحق إنني كنت خائفا من ان أغدو كاتباً، لم أكن اظن ان لدي القدرة، كانت الكتابة، امراً كبيراً من أكون أنا حتى أقول (أنا كاتب)؟، وأعني كاتباً مثل دوستويفسكي وجيمس ولورنس ومن إليهم.. ولعل حياته الصاخبة التي أغنتها التجارب المتنوعة، والانعطافات الحادة، التشرد، والزواج لمرات عدة، واتخاذ العشيقات، ثم التنقل الدائم عبر المدن الكبرى لبلدان أوروبا، تقلب خلالها في ممارسة شتى الاعمال والمهن، وعمل كل الاعمال الصغيرة لأعوام عدة، مما دفعه بعد ذلك لأن يصف كل ما لقيه، وما عاشه وعرفه بجرأة مدهشة، هدفت قبل كل شيء إلى إدانة فساد وانهيار قيم المجتمع الأمريكي الحديث، ناشراً فضائحه، معرياً اياه، وكان هذا مدعاة لمنع كتبه في نيويورك، وباقي المدن الأمريكية لمدة طويلة، حتى دعي (بالكاتب الفضائحي) والمشاكس غير الاعتيادي، والقائمة طويلة بكلماته الفاحشة، ولعله بذلك كان يحذو من سبقه من كتاب الغرب، الذين نبذهم المجتمع، وجد بودلير صلة بمؤلفات ادغار الآن بو بالرغم من اختلاف مجتمعي نيويورك وباريس عام ١٨٥٠، كان الاثنان خارجين بمعنى ما، كان (بو) سيء السمعة إلى حد كبير، وبودلير كانت سمعته أكثر سوءاً، هو صنع بنفسه هذا، لقد بصق على المجتمع (وبليك) كان شخصاً عظيماً، شخصاً نبوياً وملغزا، ثم نيتشه، فمجنون مثل سترندبرغ، أي تمرد! أي عقاب للمجتمع، هؤلاء الأشخاص كشفوا انهيار العالم الحديث، لقد تنبأوا، ورأوا ما يحصل للعالم والانسان وبلغوا صلب معضلاته، ثم ينتقل برادلي ليحدثنا في فصل آخر عن صداقات ميلر المتعددة، وعلاقاته الحميمة والممتعة مع الألوان المائية، حيث عرضت لوحاته وانتشرت في العديد من مدن أوروبا، وكان للرسم شأن لا يقل أهمية عن الكتابة، اما صداقته للمرأة، فيقول (أنها تضفي شيئاً على الجو، تجعل الحياة أكثر جمالاً، وأفضل دوماً، ان تكون النساء حولي، لا الرجال!) ليأتي بعد ذلك اهتماهه وولعه بالسينما، والكتب، انه مدمن فيلم، ومدمن كتاب، لكنهما ليسا سواء في التأثير، فالفيلم لا يظل معك، كما يظل الكتاب، الكتاب لحم حقيقي وجوهر، وانت تعيش معه وتغتذي به، اما الفيلم ان كان جيداً فيمنحك لحظات مدهشة) مثلما عرف عنه شغفه بالسفر، والتنقل، إذ طاف أوروبا لأكثر من مرة، وتشرد في شوارعها لأيام، كان يمضي لياليه في الأماكن العامة، إلا ان ثمة مكاناً واحداً استأثر به لنفسه، وارتبط به بقوة، اتخذه كفردوس ليمكث فيه ردحاً من الزمن، دام سبعة عشر عاماً انه (بيغ سور) ففي هذه المدينة الصغيرة، تزوج مجدداً من (حانيتا مارثا) التي انجبت له (توني وفال) وماذا كانت (بيغ سور؟: جبالا وسماء وبحرا وأناسا قليلين، كانت عزلتها رائعة لي، كان لنا بستان، ونحصل على الرخويات والسمك من البحر، وبعد ان تركتني زوجتي، بقي الأطفال معي، اعتدت ان استيقظ ليلا لاطعمهما، والأكثر من ذلك انني كنت أغير حضائنهما، وكان علي ان آخذ الحضائن في حقيبة، حقيبة غسيل كبيرة، وأمشي ستة أميال لأبلغ الينابيع الساخنة، واغسلها في الماء، ثم أعود بها إلى البيت، ستة أميال، في بيغ سور ، هدوء لا يوصف، كنت انام مبكراً فلا تلفاز، ولا مذياع، وأكون في الفراش مبكراً، واستيقظ مبكراً، وارى الشمس تطلع، وبعد الفطور اذهب مباشرة للعمل، وأظل اكتب حتى الظهر، ثم ما بعد الظهر، ان وجدت لدي قوة أخذت أرسم، وفي هذا كله، كنت، اجد وقتاً لألعب مع الأطفال، واصطحبهم معي إلى التلال والغابات). ثم يعود برادلي، ليضيف شيئاً مهماً عن ميلر الرسام، مبيناً حبه العظيم والمبكر للفن، إذ كان يقضي اوقاتاً طويلة يتفحص الكتب الفنية، يدرس اللوحات والتخطيطات، يناقش الاساليب والتقنيات، والفترات، وعن هذه البدايات، يقول: كانت تسليتي الوحيدة الحصول على ورق أرسم عليه، أي نوع من الورق، ورق التغليف، ورق الجزار، كانت فترة شاقة، لكني بالرغم من ذلك لم أفعل شيئاً، أحسست باني لا أملك موهبة التخطيط أو الرسم، إلا ان التغير حدث فجأة بعد مدة، حين كنت أتأمل أحد البومات (جورج جروز) بالألوان المائية، كانت على الغلاف صورة رجل، استنسخت صورة الرجل وكان استنساخي جيداً، قلت لاخططن وأرسمن، وهكذا بدأت، وباتت كل صورة عندي بمنزلة مغامرة جديدة، كما هو شأني في الكتابة، إنني لا أجهز أي شيء في ذهني قبل العمل مطلقاً!، وكان لا يطيق تلقي دروس الفن، أو تعلمها من الجامعة، فميلر المتمرد، وقف حتى في شيخوخته ضد التعلم في المدارس، ومن قبل كان قد هجر الدراسة في احدى جامعات نيويورك، بعد أربعة أشهر، معترضاً على المناهج الدراسية، ولم يعد بعد ذلك، (أومن بأن كل المدارس مخزية، أنها تقتل التطلع والرغبة في التعلم، الفنانون كلهم قتلتهم المدرسة! وحالما يخرج الأطفال من الروضة يبدأ غسل الدماغ، حين تكون خارج المدرسة تتعرف على حاجاتك بنفسك، الذهاب إليها يعطي وهماً بأن المعرفة تصنع فناناً). ثم ينتقل المؤلف موضحاً ما لباريس من مكانة مهمة في حياة هنري ميلر، إذ ارتبطت هذه المدينة الكبيرة بتكوينه بأيام وأحداث، وعلاقات واسعة باتت تشكل جزءاً منه، وكان قد وصف كل ذلك في رواياته (رويت كل شيء في مدار السرطان، عن طبيعة حياتي في باريس، وأماكن سكناي، عشت من شارع إلى شارع، من فندق إلى فندق، من أستوديو إلى آخر. لم يكن عندي عنوان محدد، باريس هي المدينة التي منحتني الشعور بالحرية العظمى) وعلى مدى صفحات الكتاب، يسجل برادلي الكثير عن ميلر، بعد ان ظل ملازماً له لسنة ونصف تنقل خلالها معه، من باريس ونيويورك، وبيغ سور، ويروي برادلي، لقد وجدت بعد ان أمضيناً قليلاً من العمل اننا متآلفان، وان احاديثنا كانت مثل استكشافات مستمرة في حقيقة الماضي، وكم ممتعة كانت ساعات الحديث الذي يسجل على الشريط، بينما كان هنري يروي قصة حياته.